الفصل الأول

شعر بني هاشم: دراسة توثيقية

أولاً– مصادر شعر بني هاشم وتوثيقها

ثانيًا– ما نُسِبَ للرسول صلى الله عليه وسلم من أراجيز

obeikandl.com

الفصل الأول

شعر بني هاشم: دراسة توثيقية

يجب أن نفرغ مما تعَرَّضَتْ له مصادر الشعر العربي من محاولات للتشكيك لم تكن كلُّها على صواب، ولم تكن كلُّها على باطل، حتى نسير في هذا البحث على بيِّنة. ومِنْ أهَمِّ المصادر التي تعَرَّضت للتشكيك كتبُ السير والمغازي، لأنها نقلتْ عن محمد بن إسحاق، وهو إمامُ هذا الفن.

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم مِنْ بني هاشم، وقد نفَى عنه القرآن الكريم استطاعته قول الشعر، ومع ذلك قام جدَلٌ واسعٌ حول ما نُسِبَ إليه من أراجيز، وظَنَّ كلُّ مشاركٍ في هذه المسألة أنه قد أغلق باب البحث، لكنَّ هذه النقطة لم تُغلَقْ على قولٍ مُقنعٍ لي، فأخذَتْ في هذا الفصل مبحثًا مستقلاًّ.

أولاً– مصادر شعر بني هاشم وتوثيقها:

أما عن مصادر شعر بني هاشم، فمع ما يفيض به الثبت الخاص بها– فضلاً عما تمتلئ به الحواشي في تخريج نصوص الأشعار– أود أن أشير هنا إلى أن الكثير من هذا الشعر قد وَرَدَ كثيرٌ منه في كتب الأدب والمختارات الشعرية، من أمثال: الحماسة لأبي تمام وشروحها، والحماسة للبحتري، والحماسة المغربيَّة للجراوي، والحماسة البصرية للبصري، وغيرها من كتب المختارات الأدبية. كما وردت قصائد وقطع وأبيات من أشعارهم في "الأغاني" للأصفهاني، و"نهاية الأرب" للنويري، وغير ذلك من مصادر الأدب العربي. كما وردت أشعارهم في كثير من كتب التاريخ والسير.

واستشهد كثيرٌ من المصنِّفين في العلوم الإسلامية والعربية، بشعر القرشيين– ومنهم بنو هاشم– في التفسير واللغة (النحو والمعاجم)، والبلاغة.

فقد استشهد ابنُ عباس، في سؤالات نافع بن الأزرق، بأبيات لشعراء قرشيين، ومنهم مشاهير شعراء بني هاشم، إذ استشهد بثلاثة عشر بيتًا لخمسة من الهاشميين، هم: أبو سفيان بن الحارث (خمسة أبيات)، أبو طالب بن عبد المطلب (ثلاثة أبيات)، حمزة بن عبد المطلب (ثلاثة أبيات)، الزبير بن عبد المطلب (بيت واحد)، علي بن أبي طالب (بيت واحد). وتَرَتَّبَ على ذلك أن امتلأتْ كتبُ التفسير وعلوم القرآن بهذه الأبيات.

واستشهد سيبويه بأبيات لأربعة عشر شاعرًا قرشيًّا، من بينهم ثلاثة شعراء من بني هاشم، هم: أبو طالب بن عبد المطَّلب، وصفية بنت عبد المطلب– وهما من شعراء هذا الكتاب– والفضل بن عبد الرحمن القرشي (من شعراء العصر الأموي)([1]). ثم انتقلت هذه الشواهد– مع غيرها– إلى شروح كتاب سيبويه، وإلى كثير من كتب النحو.

كما كان اللغويون يستشهدون في كتب اللغة والمعاجم العربية الأولى، بأبيات للهاشميين، فتداوَلَها مَنْ بعدَهُم من اللغويين. فقد استشهد الأصمعي، في كتاب النبات، ببيت لأبي طالب بن عبد المطلب، كما استشهد في كتاب خَلْق الإنسان، بشطرين للإمام علي بن أبي طالب، واستشهد تلميذُه أبو عبيد القاسم بن سلام، في كتابه "الغريب المصنف"، بأبيات لأبي طالب، فقد تكرَّر لديه بيتُ أبي طالب مرتين، آتيًا في إحداهما ببيت سبقه، وأتى في موضع آخر ببيت آخَر من لامية أبي طالب([2]).

وامتلأت المعاجمُ العربية بأبيات لبني هاشم، مثل "تهذيب اللغة" للأزهري، و"المخصص" لابن سيدة، و"لسان العرب" لابن منظور، و"تاج العروس" للزَّبيدي، وغير ذلك من معاجم مذكورة في مصادر هذا الكتاب.

([1]) انظر: شواهد الشعر في كتاب سيبويه، د. خالد عبد الكريم ص286 و287.
([2]) الغريب المصنف ص424 و941 و958.

لكنَّ العمل في هذا البحث لم يتمّ في معزل عن التشكيك- قديمًا وحديثًا- في شعر السيرة النبوية، وفي رواية الشعر العربي بوجه عام، منذ شكَّك ابنُ سلام في كثير من الشعر الجاهلي، وشكك ابن هشام في كثير من أشعار سيرة محمد بن إسحاق "إذ إنَّ إشاراتهما في كتابيهما أصبحت بعدُ ركيزة من ركائز الذين يشكُّون في الشعر الجاهلي من الْمُحْدَثِين"([1]).

فإنَّ ابن سلام أسقط كثيرًا من الشعر العربي، بسبب بعض المقولات التي أوقعَتْهُ في الظنون، فهو يقول: "ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلاَّ الأبيات يقولها الرجلُ في حاجته، وإنما قُصِّدَت القصائدُ وطُوِّل الشِّعرُ على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف. وذلك يدُلُّ على إسقاط شعر عاد وثمود وحِمْيَر وتُبَّع"([2]).

فهذا الرأيُ الذي اعتنقه ابنُ سلام هو الذي أوقعه في التشكيك، والذي يترتب عليه إسقاطُ كثير من الروايات، فهو- بهذا- مسئولٌ عن تعطيل رواية كثير من الشعر العربي، وكان من الممكن أن يعترف- بسهولة وبصدق مع النفس- بقلَّة بضاعته في الرواية، لكنه لم يعترف بذلك فأصبح لكلامه شأنٌ كبير عند كثير من الباحثين، مع قلة ما رواه.

لقد رَدَّ الأستاذ محمود شاكر- في هامش تحقيقه- على قوله السابق، قائلاً: "هكذا يرَى ابنُ سلام وغيره من المتقدِّمين. وهو عندي باطل، فالشعرُ أقْدَمُ مما يَزْعُم، وطَويلُه أعتَقُ مما يُتَوَهَّم. وليته قال هنا ما قاله منذ قليل في سبب ذهاب شعر عبيد وطرفة، أنَّ قِدَمَهُما كان السبب في قلة ما رُوِيَ عنهما، فإذا صَحَّ ذلك فَمَنْ كان قبلهما أجْدَرُ أنْ يذهب من كلامه أكثرُ مما ذهب من كلامهما"([3]).

([1]) مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد ص335.
([2]) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص26.
([3]) السابق (الهامش) ص26.

وهكذا انتقدَهُ الأستاذ شاكر، بما يعني أنه يحمل بضاعة لا يستطيع استنباط نتيجة صحيحة منها. وكان الأجدَرُ به أن يأخُذ برأي الأصمعي– وهو من المتشددين في رواية اللغة والأشعار– حيث قال الأصمعي: "أوَّلُ مَنْ تُرْوَى له كلمة تَبْلُغ ثلاثين بيتًا من الشعر مُهَلْهِل، ثم ذُؤَيْبُ بْنُ كعب بن عَمْرو بن تميم، ثم ضَمْرَة– رجُل من بني كنانة– والأضْبَطُ بن قُرَيْع"، وقال الأصمعي: وكان بين هؤلاء وبين الإسلام أربعمائة سنة. قال: وكان امرؤ القيس بعد هؤلاء بكثير"([1]).

كما خالَفَه الأستاذ شاكر، في موضع آخَر، حيث زعم ابنُ سلام أنَّ العرَب لَهَتْ عن الشِّعْر وروايته بتشاغُلِهِم بالجهاد وغزو فارس والرُّوم، فردَّ بقوله: إنهم لم يلهَوْا عنه في أوَّل الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع وفرة الدواعي إلى اللهو عنه، فأحْرَى أن لا يلهَوْا عنه في زمن الفتوح الأولى([2]).

أمَّا حكاية انشغال العرب عن الشعر بالفتوح– والتي أوردها ابن سلام– لإثبات أنَّ الشعر ذهب أكثرُه، وأنه لم يُدَوَّن، فإنه قال في آخِر كلامه: "وقد كان عند النعمانِ بْنِ المنذر منه ديوانٌ فيه أشعارُ الفُحول، وما مُدِحَ هو وأهلُ بيته به، صار ذلك إلى بني مروان، أو صار منه"([3]).

لقد كان ابنُ سلام ينقُصُه كثيرٌ من الآراء التي تُوَثِّق رواية الشعر، ومنها أن عُمَرَ بْنَ الخطاب استنشد الشعراء ما قالوه في جاهليتهم وفي إسلامهم([4])، وتم تدوين ذلك. ومنها أن مُعاصِرَهُ أبا تمام (المتوفى في نفس عام وفاته 231هـ) كان قد نقَلَ مختاراته الشعرية– الحماسة وغيرها– من كتُبٍ مُدَوَّنة، ولم يَرْوِهَا مشافهة، بينما انشغل ابنُ سلام

([1]) مجالس ثعلب، ص411 و412.

([2]) قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام، محمود شاكر ص92.

([3]) طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ج ص24.

([4]) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد، ج6– ص192.

openarabia.com

بتبرير قلة الرواية، أو بادِّعاء فقدان الأشعار. وليس معنى ذلك التقليل من أهمية كتابه، لكنَّني لا أرَى في أقواله الكلمة الأخيرة، فهو حلقة مهمة من حلقات الدرس الأدبي، تكتمل بحلقات أُخَر، بل إنَّني استضأتُ بما رواه ابنُ سلام، حين وجدته يروي واقعة انتحال بعينها عن يقين([1]).

أمَّا السيرةُ النبوية التي رواها العالِمُ الثقةُ محمدُ بن إسحاق بن يسار– والتي لا يُوجَد الآن منها إلا قطعةٌ صغيرة– فتحتوي على أشعارٍ كثيرةٍ أوردَها في المناسبات التي قيلت فيها. فاكتفَى ابنُ هشامٍ بالمرويات الشعرية القليلة التي رواها عن أساتذته، غير مُعترِفٍ بوجود غيرهم أو بوجود رواياتٍ غير ما تعلَّمَهُ منهم، فظلَّ يُكَرِّر قولته الشهيرة: "ولم أرَ أحدًا من أهل العلم بالشعر يعرف هذه القصيدة". فأبسط ردٍّ على ابن هشام هو ما كان يقوله العلماءُ القدامى في مثل هذا الموقف: مَن لم يحفَظ ليس بِحُجَّةٍ على مَنْ يحفَظ.

فالتعلل بعدم وجود ذلك عند أحَدٍ ممن يعرف، ليس في محلِّه. كما أنَّ ابن هشام– بهذه الطريقة التي تُظْهِرُه مُدَقِّقًا– جعل كتاب ابن إسحاق يُنْسَبُ إليه، بالرغم من أنه لم يُتعِبْ نفسه في الرواية كما فعَلَ ابنُ إسحاق، الذي فاق إخلاصُه إخلاصَ ابن هشام.

والحق أن ابن إسحاق لم يكن كتابُه في السيرة فقط، بل كان اسمه "المبتدأ والمبعث والمغازي" والكلمتان الأخيرتان من هذا العنوان هما ما يخص السيرة النبوية، فقد كان لابن إسحاق هدفٌ بكتابه، حيث إنه "ربط تاريخ الدعوة الإسلامية بالتاريخ القديم، وأوصَلَ نَسَبَ الرسولِ الكريم بنسَبِ أنبياء بني إسرائيل، فأحَلَّ العَرَبَ في مكان تاريخي متصل، بعد أن كان تاريخهم لا يتجاوز معد بن عدنان"([2]).

([1]) انظر القطعة الأولى من الشعر المنسوب خطأ لأبي سفيان بن الحارث، في نهاية مجموع شعره من هذا البحث.

([2]) المبتدأ في قصص الأنبياء، لمحمد بن إسحاق، جمع: محمد كريم الكواز، وانظر مقدمته ص**27**.

لم يُشكِّك ابنُ هشام في أشعار السيرة كلها، لكنه حذف ما لا علاقة له بالسيرة النبوية، كما أورد أشعارًا لم يقطع فيها بأنها منحولة، لكنه لم يَرَ مِنْ أساتذته البصريين مَنْ يرويها، كما وَثَّق بعضَها. ليس معنى ذلك أنه مُحِقٌّ في تشكيكه كلِّه، بل إن بعض العلماء تعَقَّبه فيما تعَقَّب به ابن إسحاق. ومع ذلك فقد أثار ابنُ هشام قضايا مهمة في توثيق الأشعار، بل أتى بروايات أخرى غير التي رواها ابنُ إسحاق لبعض الأشعار. بل إنه– أيضًا– في تمحيصاته وموازناته "يبين عن علمه باللغة وأدبها، ويدل على أنه ناقدٌ بصير، وصاحب ذوق رفيع، ونراه أحيانًا يُعَلِّق على النص ناقدًا له، أو مُقَوِّمًا لمستوى جودته، أو مُوضِّحًا لبعض ما غمض منه"([1]). وقد فتحَتْ كلماتُه بعض الآفاق أمامي، فقد كان على حقٍّ في الإشارة إلى رواية مراثي بنات عبد المطلب، قبل وفاته، وهُنَّ ست بنات، في حين أثبتَ بحثي هذا أن صفية بنت عبد المطلب كانت في العاشرة من عمرها في هذا التوقيت، ومن ثَمَّ وضعتُ مرثيتها لأبيها مع ما هو منسوب إليها من أشعار.

وكان ابنُ سلام الجمحي قد اتهم ابْنَ إسحاق بأنه أفسد الشعر وحمل كل غثاء منه، وتعليقًا على ما قام به ابنُ سلام الجمحي– تساءَل المستشرق الألماني يوسف هوروفنتس: "هل يستحق ابنُ إسحاق نقدَ الجمحي؟"

ثم أجاب: "لا يُوجَد ما يدعو إلى الشكِّ في صِحَّة كثير من القصائد التي ذكرها ابنُ إسحاق، وخاصة تلك التي تتصل بحوادث المدينة، وكثيرٌ منها كان معروفًا بِصِحَّته في عهد ابْنِ هشام لدَى علماء الشعر. ولم يكن ابنُ إسحاق يتمسَّك بصحة كثير من الباقي على الإطلاق، ولكنه لم يقُم بأبحاث خاصة في صحتها لم يَعْتَد العلماءُ المحترفون

([1]) شعر السيرة النبوية دراسة توثيقية، د. شوقي رياض، ص278.

القيام بها، ولا تمسه مسألةُ صحتها مَسًّا خاصًّا، فهو استشهد بهذه الأشعار على قدر ظهورها له جديرة بالاستشهاد"([1]).

وقد شكَّك الدكتور طه حسين، في الأشعار الواردة حول غزوة بدر وغزوة أحُد، وغيرهما من الغزوات في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، مما أُضِيفَ إلى حمزة بن عبد المطلب، وعليٍّ بن أبي طالب، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، كما شكَّ في الشعر المتصل بتعظيم النبي صلى الله عليه وسلم من ناحية أسرته([2]).

وكلام الدكتور طه حسين، مَردود بما رَدَّ به عليه د. صلاح عيد، بأنَّ الشعر المقول في غزوتي بدر وأُحُد وغيرهما، سواء من جانب المسلمين أو من جانب المشركين على شكل نقائض بين معسكري المدينة ومكة، هو نفسُه حقيقةٌ تاريخية وفقًا لمنطق عَصْره، لأنه يمثل الْخَطَّ المعنوي الموازي للخط العسكري في المعارك التي دارت بين المعسكريْن في أثناء مرحلة دار الهجرة من حياة الرسول، ومن الممكن أن يتَّجِهَ الشك إلى تحريفاتٍ جُزْئيَّة لحقتْ بهذا الشعر في الفترة بين روايته وتدوينه، أمَّا أن يُشَكَّ فيه على هذا الوجه من التعميم، فهو أمرٌ غير مقبول- تاريخيًّا- من أساسه([3]).

وأمَّا عن شَكِّ د. طه حسين في الشعر المتصل بتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم من ناحية أسرته، مشيرًا بذلك إلى قصيدة أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم، التي أولها([4]):

إذا اجتَمَعَتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ فعَبْدُ مَنَافٍ سِرُّها وصَمِيمُها

([1]) المغازي الأولى ومؤلفوها، ص**108**.

([2]) في الأدب الجاهلي، د. طه حسين ص**135** و**152**.

([3]) المدائح النبوية د. صلاح عيد ص**16** و**17**.

([4]) ديوان أبي طالب (د. ألتونجي)، ص**82**.

فيرى د. صلاح عيد- من خلال دراسته لتطور مديح الرسول في عصره مرتبطًا بأحداث حياته، أنَّ هذه القصيدة- من الوجهة التاريخية- قد نُظِمَتْ لتُؤدِّي دورًا مُعَيَّنًا في صُلْب حركة الأحداث في هذه الفترة، كما أنها- من الناحية الفنية- تقع في مكانها الصحيح على خَطِّ التطوُّر الفني في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، خلال مرحلة ما قبل الهجرة، والذي بدأ بالارتكاز على قيمة بدوية هي قيمة النَّسَب في هذه القصيدة، وانتهى بالارتكاز على قيمة دينية([1]).

لقد كان عميد الأدب العربي طه حسين والمستشرق البريطاني مرجليوث، يعمل كلٌّ منهما منفصلاً عن الآخَر، على التشكيك في الشعر الجاهلي، وذكر د. فضل العماري أن نظرية النظم الشفوي "أكَّدت أنَّ نظرية (مرجليوث- طه حسين) ليس لها أساسٌ أصلاً، لأننا بدراستنا للقالب الصياغي في الشعر الجاهلي نلاحظ النمطية والتكرارية فيه، وهذا يدل على أنه يجري على سنن واحدة، فإنه لا يمكن أن يُولَدَ فجأة"([2]).

وقد تفاوَتتْ رؤى الباحثين في هذه القضية، لكنَّ الذي يلفت النظر ما فعله د. يحيى الجبوري، حيث ظَهَرَ في صورة المتشدِّد وهو يعرض أقوال ابن سلام عن الانتحال، وما قام به ابن هشام في السيرة، فسار في نفس الاتجاه، ثم قال: "فإنَّ ما بَقِيَ من هذا الشعر لا يصِحُّ أن يُؤخَذَ على أنه صحيحٌ لا ريبَ فيه، كما أنه لا يصح أن يُرْفَضَ على أنه باطلٌ لا نفع به ولا خير فيه، وإنما يؤخَذ هذا الشعر بالتنقية والتنقيح والتمحيص"([3]). فظننتُ أنه قد اتخذ موقفًا متشدِّدًا حين قام بعَرض المادة الأدبية لكتابه، وأنه قام بأيِّ نوع من التمحيص، لكنَّ الواقع أنه لم يُطَبِّق شيئًا مما قال، فكانت النتيجة أنَّ الشعر المنسوب خطأً لصفية نسبَهُ لها، بل لم يُشِرْ إلاَّ إلى ثلاث قصائد، وهي كلها في عداد المنسوب خطأً لصفية، في نهاية مجموع شعرها في كتابنا هذا. وهو ما قام به- أيضًا-

---

([1]) المدائح النبوية، د. صلاح عيد، ص17، مع اختلافنا مع المؤلف على لفظ (قيمة بدوية)، فلعله يقصد (تقليد عربي)، مع أنَّ الأنساب كلها شيء ونسب النبي صلى الله عليه وسلم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهم جميعًا الصلاة والسلام، شيء آخر، فإنه المقصود من النسب، لا التفاخر الجاهلي بالأنساب.

([2]) النظم الشفوي في الشعر الجاهلي، جيمز مونرو، ترجمة: د. فضل العماري، وانظر مقدمة الترجمة ص8 و9.

([3]) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، د. يحيى الجبوري ص51. وانظر أبياتًا غير ثابتة النسبة لصفية ص111- 113.

obeikandi.com

باحث آخر، هو د. عبد الحليم حفني، حيث وَعَد بالبحث والتحقيق، ثم أورد بيتين لصفية من الشعر المنسوب لها خطأً([1])، وكأنه يتابع د. يحيى الجبوري في خطواته.

ومن أغرب الأمور أن يُشَكِّك المشكِّكون في محمَّد بن إسحاق، الذي كان إمامًا في الحديث، فيُنْسَب إليه ما لا يستحقه رجلٌ في مكانته العلمية السامية. فقد كان إمامًا ثقة في الحديث، ذا نتاج علميٍّ واسع، وما وُجِّهَ إليه من اتهامات من قِبَلِ بعض معاصريه، كالإمام مالك وهشام بن عروة بن الزبير، لم تثبُتْ فيه، فقد زال الجفاءُ بينه وبين الإمام مالك، كما أن روايات ابن إسحاق الحديثية، بسند هشام، تملأ كُتُب الحديث، وبلغت رواياتُ ابن إسحاق في مسند أحمد (**594**) حديثًا، ورَوَى عنه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وله مئاتُ الأحاديث في سُنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجه والدارمي والبيهقي ومسند أحمد، في جميع أبواب الحديث، بما في ذلك باب السِّيَر. بل كان ابنُ إسحاق حريصًا على أن يكون من أئمة الحديث([2]).

ومع التشكيك القديم والحديث في أشعار السيرة النبوية، هناك من أشعار السيرة ما لا يتطرَّق إليه الشك، منها الأشعار التي قيلت في قصة أصحاب الفيل، التي جاء بها القرآن، وأرَّخَ العَربُ بعام الفيل، وقالوا في هذه الحادثةِ الأشعار، وقد صرَّح بذلك أبو الوليد الأزرقي، بعد أن ذكر طائفة من تلك الأشعار، قائلاً: "ولو لم يَنطِقْ القرآنُ به لكان في الأخبار المتواطئة والأشعار المتظاهرة في الجاهلية والإسلام حُجَّةٌ وبيان، لشهرته وما كانت العربُ تؤرِّخ به..."([3]).

([1]) الشعراء المخضرمون، د. عبد الحليم حفني ص**199** و**200**. وقد عرض قضية الانتحال من ص**214** حتى **226**، وفي نهايتها ذكر أن شعر المخضرمين يخضع لما يخضع له الشعر القديم من نواحي البحث والتحقيق.

([2]) الحديث النبوي الشريف رواية محمد بن إسحق، د. هدى الشمري ص**181**– **221**.

([3]) أخبار مكة للأزرقي ج**1**– ص**154**. والكلام نفسه في: إتحاف الورى لابن فهد ج**1**– ص**44** و**45**.

لهذا فإنني مطمئن إلى ما قمتُ بجمعه وتحقيقه في هذا الكتاب، غير غافل عن نقد بعض الروايات وإخراج ما رأيتُ عدم صحة نسبته إلى قائليه، إمَّا بنَصٍّ أحد العلماء على واقعة انتحال بعينها([1])، وإمَّا أنه لا يصح لأسباب تاريخية، كالأشعار التي قيلت في مناسبات معينة، ويثبتُ لي أن الشاعر المنسوب إليه هذه الأشعار مات قبل هذه المناسبة([2])، أو أنه كان طفلاً صغيرًا([3])، وكالأبيات التي ورد ذِكْرُ القرآن الكريم فيها مع أنها قيلت في الجاهلية([4]).

ثانيًا- ما نُسِبَ للرسول (صلى الله عليه وسلم) من أراجيز:

ولا يتبقَّى إلاَّ أن نفرُغ من هذه القضية التي تعرَّض لها كثيرٌ من علمائنا القدامى بِشَكْلٍ يُوهِمُ بأنهم استوعبوها كاملة، وبأنهم قتلوها بحثًا، وبما يعتقدون أنهم حَلُّوا التناقُضَ بين نسبة بعض الأراجيز إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى: ﴿وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي له...﴾[سورة يس: 69]، على الرغم من أنَّ التناقض ظَلَّ قائمًا. ونقل عنهم كثيرٌ من المحدَثين آراءَهُم، بما لا يُضيف إليها كثيرًا، فقد كانت الروايات المختصرة للأحاديث النبوية سببًا في عدم إتاحة المعلومات الكافية بشكل يفْصِل في هذه المسألة. فمازلنا نرى بعض الباحثين ينسبون بعض الأراجيز للنبي صلى الله عليه وسلم. وعلى سبيل المثال: الباحث علي حيدر المؤيد، فإنه قد وضع كتابًا سمَّاه "ديوان أهل البيت"، جمع فيه أشعار الأئمة الاثني عشَر، على ما يقول به الشيعة، يُضاف إليهم السيدة فاطمة الزهراء، حتى لو كان أحد الرواة قد سمعها في المنام! وبدأه بجمع ما يُنسب للنبي صلى الله عليه وسلم، ورتَّبَ قوافي ما جمعه للرسول صلى

([1]) انظر: القطعة المنسوبة لأبي سفيان بن الحارث، في قسم المنسوب له، فقد نصَّ ابن سلام على صانعها وناسبها له.

([2]) انظر: القطعة المنسوبة للبيضاء أم حكيم، في رثاء أخيها أبي طالب، مع أنها ماتت قبله بسنوات. وكذلك القطعة المنسوبة لعتبة بن أبي لهب يخاطب السيدة عائشة بخصوص خلافها مع الإمام علي، مع أن عتبة مات قبل ذلك بسنوات.

([3]) انظر: القصيدة المنسوبة لصفية في رثاء أبيها عبد المطلب، على مسمع منه قبل وفاته، وقد كانت طفلة في العاشرة حين توفي أبوها، في قسم المنسوب إليها من الأشعار.

([4]) انظر: الأبيات المنسوبة لعاتكة بنت عبد المطلب، في زواج النبي صلى الله عليه وسلم، أي قبل نزول القرآن بخمسة عشر عامًا.

openkanz.com

الله عليه وسلم على حروف المعجم. وباختصار؛ فإنه جمع له ديوانًا فيه أشعار وأراجيز، وإذا كان من منهج مؤلف ذلك الكتاب أن يضع ترجمة لكل شاعر قبل نصوصه فإنه فعل ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم. ومع أنه ذكر في نهاية ترجمته للنبي صلى الله عليه وسلم بعض التخريجات المعروفة لإخراج ما نُسِبَ إليه صلى الله عليه وسلم من كونها شعرًا، إلا أنه رأى أن يصنع له ديوانًا، ووضع الآراء التي تنفي نسبة الشعر إلى النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل العموم([1]).

كما وضع د. إميل يعقوب كتابه "المعجم المفصل في شواهد العربية"، وذكر فيه ما نُسِبَ للنبي صلى الله عليه وسلم، من قوله:

أنـــــا النبـــــيُّ لا كـــــذِبْ
أنـــا ابـــنُ عبـــدِ الْمُطَّلِـــبْ

ثم قال: الرجز للنبي صلى الله عليه وسلم([2]).

كما أورد ما نُسِبَ إليه من قوله:

هــل أنــتِ إلا إصــبعٌ دَمِيــتِ
وفــي ســبيل الله مــا لَقِيــتِ

وقال: الرجز للنبي صلى الله عليه وسلم..."([3]).

ولا أريد أن أذكُر كل الأبيات التي تمثل بها النبي صلى الله عليه وسلم، التي يُعْرَف أصحابُها من الشعراء، ولا نصوص تلبية الحجيج التي كانت تُرَدِّدها القبائل قبل الإسلام، فإنني لا أريد إعادة كلِّ ما أورده علماءُ العربية من آراء في هذه المسألة، ولكنني أريد وضع نهاية لكل ما قيل، من خلال الكلام على رجزيْن اثنين، هما:

1- قوله صلَّى الله عليه وسلَّم وقد جُرِحَت إصبعُه:

([1]) ديوان أهل البيت، لعلي حيدر المؤيد، ص13- 30.

([2]) المعجم المفصل لإميل يعقوب ج9- ص43.

([3]) المعجم المفصل ج9- ص202.

obeikandi.com

هَـــلْ أنـــتِ إلاَّ إصـــبعٌ دَمِيـــتِ

وفـــي ســـبيلِ اللهِ مـــا لَقِيـــتِ

2- قوله صلى الله عليه وسلم، في يوم حُنَيْن:

أنــــا النَّـــــبيُّ لا كَـــــذِب

أنــــا ابْــــنُ عَبْــــدِ الْمُطَّــــلِبْ

حيث إنه من غير المتصوَّر أن يكون الرجَزُ الأخيرُ قد قاله أحَدٌ غيرُ النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه لا نبيَّ غيرُه من أبناء عبد الْمُطَّلِب.

أمَّا الرَّجَزُ الأول، فقد رُوِيَ لأربعةٍ قالوه في مناسباتٍ مُحدَّدة. ويكشف الترتيبُ التاريخيُّ عن قائلِهِ الأول، وهو أبو بكر الصِّدِّيق، وصار هذا الرجزُ من المأثورات الإسلامية الأولى التي تَمَثَّل بها النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم والمسلمون. فقد نُكِبَتْ إصبع أبي بكر وهو يدخل الغار، في هجرته مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال هذيْن الشطرين. حيث يُرْوَى أنه "لَمَّا انطلقَ أبو بكر مع رسول الله، صلَّى الله عليه وسلم، إلى الغار، قال أبو بكر: يا رسول الله، لا تَدْخُل الغارَ حتى أستَبْرئَهُ. فدَخَلَ أبو بكْرٍ الغارَ، فأصابَ يَدَهُ شيءٌ، فجَعَلَ يمسَحُ الدَّمَ عَنْ إصْبَعِه، ويقول:

هَـــلْ أنـــتِ إلاَّ إصْبَـــعٌ دَمِيـــتِ

وفـــي ســـبيلِ اللَّـــهِ مـــا لَقِيـــتِ([1])

ونَقَل الصالحي، عن ابن أبي شيبة، وابن المنذر: عن أبي بكر، أنهما لَمَّا انتهيا إلى الغار إذا جُحْرٌ، فألْقَمَهُ أبو بكرٍ رِجْلَيْه. قال: يا رسول الله، إنْ كانَ لَدْغَةٌ أوْ لَسْعَةٌ كانتْ بي([2]). ونقل المحب الطبري، والصالحي- أيضًا- عن ابن مَرْدَويه، عن جُنْدَب بْن سُفيان، قال: لَمَّا انطلَقَ أبو بكر مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، إلى الغار، قال أبو

([1]) انظر الشطرين في ديوان أبي بكر الصديق، بتحقيق: راجي الأسمر (المستدرك على الديوان) ص85. وانظرهما في ديوانه بتحقيق: د. عمر الطباع، ص134، ذاكرًا أنهما كانا في الغار، ليلة الهجرة، لكنَّ المحقق ذكر سهوًا أنه غار حراء. وتفصيل الرواية في: البداية والنهاية لابن كثير ج3: 180، سير أعلام النبلاء للذهبي ج9- ص528، سبل الهدى والرشاد للصالحي ج3: 339.

([2]) سبل الهدى والرشاد- للصالحي ج3: 339.

obeikandi.com

بكر: يا رسول الله، لا تَدْخُل الغارَ حتى أسْتَبْرئَهُ. فدَخَلَ أبو بكر الغارَ؛ فأصابَ يَدَهُ شَيءٌ، فجَعَلَ يَمْسَحُ الدَّمَ عن إصْبَعِهِ، ويقول:

هــلْ أنــتِ إلاَّ إصْبــَعٌ دَمِيــتِ

وفــي ســبيلِ اللهِ مــا لَقِيــتِ([1])

واختار الشيخ أحمد بن زيني دحلان([2])، هذه الرواية، في سيرته، وعلَّقَ عليها بقوله: "فهذا البيتُ من إنشاء الصدِّيق، رضي الله عنه، وقد تَمَثَّلَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم، إذْ أصابَهُ حَجَرٌ فدَميتْ إصبعُه. والممتنعُ عليه صلَّى الله عليه وسلَّم إنما هو إنشاءُ الشعر لا إنشادُه. ثُمَّ إنَّ هذا البيت تمثَّلَ به كثيرٌ من الصحابة، كابْنِ رَوَاحة والوليدِ بْنِ الوليدِ بْن الْمُغِيرة وجعفر بْن أبي طالب رضي الله عنهم"([3]).

ثم أُصيبَتْ إصبعُ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، في غزوة أحد (في السنة الثالثة للهجرة)، فدَمِيَتْ، فقال هذيْن الشطرين مُتَمَثِّلاً. ورواية البخاري لم يتحدَّدْ فيها تاريخ إصابته صلى الله عليه وسلم وقوله هذا، بل ربما تسبَّبت روايةُ البخاري المختصرة، في نسبة الشطريْن للرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، وكأنه أنشأهما، فقد رَوَى حديثًا- بسنده- عن الأسود بن قيس، سَمِعتُ جُنْدَبًا يقول: بَيْنَمَا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَمْشِي إذْ أصابَهُ حَجَرٌ فعَثَرَ فَدَمِيَتْ إصْبَعُهُ، فقال: "هَلْ أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سبيلِ الله ما لَقِيتِ". وكتابة هذيْن الشطريْن عند البخاري على هيئة النثر لا تعني أنَّ له رأيًا يتعلَّق بكونهما نثرًا مسجوعًا مثلاً، وإنما وضع البخاري حديثه في باب عنوانه "بابُ ما يَجُوزُ من الشِّعْر والرَّجَز والْحُدَاء وما يُكْرَهُ منه"([4])، ومن المعروف أن العناوين الموضوعة في صحيح البخاري هي من عمل البخاري نفسه([5])، كما أنَّ هذه الرواية لم يُذْكَرْ فيها

([1]) الرياض النضرة للمحب الطبري ج1: 71، وسبل الهدى والرشاد ج3: 339.

([2]) من علماء القرن الثالث عشر الهجري، كان مفتي الشافعية في مكة المكرمة.

([3]) السيرة النبوية، للسيد أحمد بن زيني دحلان ج1: 336. مع استبعادنا لنسبة التمثل به لجعفر، فقد كان معه عبد الله بن رواحة في مؤتة، وهو الذي تمثل به، بل ضَمَّنَه أرجوزة له. أمَّا جعفر فلم تُجرَحْ إصبعه، وإنما باع جسده كله لله، وقُطِعَتْ يداه، فأبدله الله بهما جناحين يطير بهما في الجنة.

([4]) هو الباب رقم 90، ورقم الحديث 6146، بترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي.

([5]) في رحاب السنة: الكتب الصحاح الستة، د. محمد أبو شهبة ص64.

obeikandi.com

أنه- صلَّى الله عليه وسلَّم- تَمَثَّل بهما، بمعنى أنَّهما لغيره. وقد أتَمَّ الْخَطَّابي- أحد شُرَّاح البخاري- الرواية، بصورة يتحدَّد فيها أنه- صلى الله عليه وسلم- كان في بعض المشاهد: عن جُنْدَب بْن سُفيان، أنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم، كان في بعض "المشاهد" وقد دَمِيَتْ إصبعُه، فقال: "هل أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سبيل الله ما لَقِيتِ"([1]). ومن المعلوم أنَّه لا تُوجَد "مَشَاهد"- أيْ غزوات- قبل الهجرة، فأيُّ مشهد حضره النبي صلى الله عليه وسلم كان بعد الهجرة، أي بعد أن قال أبو بكر هذين الشطرين في أثناء الهجرة.

وقد رَوَى الترمذي في "الشمائل": ... عن جُنْدَب بْن سُفيان البَجَلي، قال: أصابَ حَجرٌ إصبعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدَمِيَتْ، فقال: "هل أنتِ إلاَّ إصبعٌ دَمِيتِ وفي سبيل الله ما لَقِيتِ"([2]). ونقل عنه الدِّياربكري هذا الحديث وعلَّق بقوله: "وكان ذلك كان في غزوة أحُد"([3]). وأخرج أحمد في مسنده رواية مختصرة- أيضًا-: أصابَ إصبعَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم شيءٌ، فدَمِيَت إصبعُه فقال:...".

وذكر المطهَّرُ بنُ طاهر المقدسي، هذيْن الشطريْن في سياق سرْد تفاصيل بعض الأحداث الأليمة يوم أحُد، الذي كان يوم بلاء وتمحيص، حيث انهال المشركون على رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم "ودُثَّ بالحجارة، حتى وقَع لِشِقِّه، وشُجَّ وجهُه، وكلمتْ شفتاه([4])، وكُسِرَتْ رَباعيتُه، ودخلَتْ حلقة من الدِّرْع في وجهه، ووقع في([5]) حُفرة من الْحُفَر التي عملها أبو عامر الفاسق... وأكبَّ أبو دجانة عليه يقيه بنفسه النَّبْل، ورُوِي أنَّ نُشَّابة أصابت إصبعَهُ فقال:

([1]) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري- للخطابي ج2: 1358.

([2]) جمع الوسائل في شرح الشمائل للترمذي- للقاري 2: 43و44. وشرح شمائل الترمذي، للمناوي ج2: 43و44.

([3]) تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس- للدياربكري ج1: 432.

([4]) في نسخة الكتاب: شفتيه (خطأ لم ينصّ عليه ناشره).

([5]) اقتضى السياق أن أضع الحرف (في).

هـــل أنـــتِ إلاَّ إصـــبعٌ دَمِيـــتِ
وفـــي ســـبيلِ اللهِ مـــا لَقِيـــتِ([1])

وفي كتاب "النهاية" أورد ابن الأثير (مجد الدين) الشطرين على أنهما من إنشاء النبي صلى الله عليه وسلم، نقل قبلهما قول الحربي: "ولم يبلُغني أنه جرَى على لسان النبي صلى الله عليه وسلم من ضروب الرَّجَز إلاَّ ضربان: المنهوك والمشطور، ولم يعُدّهما الخليلُ شعرًا"([2]).

وفي كتاب "الوفا بأحوال المصطفى" نقل ابنُ الجوزي روايةَ البخاري المختصرة دون تعليق عليها، إلاَّ أنه ذكرها في باب بعنوان "في ذكر ما تمثل به من الشعر"([3]).

ونقل ابنُ منظور في "لسان العرب"، عن رواية تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال هذين الشطريْن وقد جُرحت إصبعُه في حفر الخندق([4])، أي في السنة السادسة للهجرة.

وهناك روايةٌ غريبة تعقَّبَها بعضُ العلماء، تنسب هذين الشطريْن للرسول صلى الله عليه وسلَّم، وهو داخِلٌ إلى الغار، فهناك رواية لابن مَنده، تَعَقَّبَها أبو نُعَيم وذكَرَ غيرها، فتعَقَّبَهما معًا ابنُ الأثير (عزّ الدين) في كتابه "أُسد الغابة": روى يونس بن بُكير، عن عنبسة بن الأزهر، عن ابن الأسود النهدي، عن أبيه، قال: ركب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، إلى الغار، فأصيبت إصبعُ رجْله، فقال:

هـــلْ أنـــتِ إلاَّ إصـــبَعٌ دَمِيـــتِ
وفـــي ســـبيلِ اللهِ مـــا لَقِيـــتِ

([1]) البدء والتاريخ– للمطهَّر بن طاهر المقدسي ج4: 202.

([2]) النهاية لابن الأثير ج2– ص199.

([3]) الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ج2: 458.

([4]) لسان العرب (صبع)– ج8– ص192.

obeikandl.com

ذكره ابنُ منده. وقال أبو نعيم: ذكره بعضُ الواهمين، عن يونس بن بُكير... وذكر الحديث. قال: والصحيحُ ما رواه الثوريّ وشعبة وابنُ عيينة، وأبو عوانة، وإسرائيل، والحسن وعليٌّ ابنا صالح، عن الأسود بْن قيس، عن جُندب البجليّ، قال: كنتُ مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الغار فدَمِيَتْ إصبعه، فقال... مثله.

فتعَقَّبَهُ ابنُ الأثير بقوله: وهذا- أيضًا- وَهْمٌ، فإنَّ جُندبًا البجليَّ لم يكُنْ مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، في الغار، ولا كان مُسلمًا ذلك الوقت. فلو لم يقُلْ: كنتُ مع النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لكان الأمر أسهل، إلاَّ أنْ يكون أراد غارًا آخَر، فتُمكن صحَّتُه، على أنه إذا أُطْلِقَ لم يُعرَف إلاَّ الغارُ الذي اختفَى فيه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا هاجَر([1]).

ثم نُكِبَتْ إصبعُ الوليدِ بْنِ الوليدِ بْن المغيرة- أي: نالَتْها الحجارة- فقال الشطرين. حيث يُنسَبُ إليه أنه تمثَّل بهذين الشطرين، حين أقبل إلى المدينة مع المستضعفين، أصحاب أبي بصير، بعد صُلح الحديبية، فلَمَّا دَخَل الْحَرَّة عَثَرَ فدَمِيَتْ إصبعه، فربطها وهو يقول الشطريْن([2]). أي أنه قالهما بعد الصلح، في السنة الخامسة للهجرة، أو السادسة.

ثم جُرِحَ عبدُ الله بنُ رَوَاحة في سرية مؤتة، عام 8 هـ، فضَمَّن هذين الشطرين في أرجوزة له، فقد أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم، مع زيد بن حارثة وجعفر بن أبي

([1]) أسد الغابة لابن الأثير جـ1: 98. وقد أعاد ذكر الحديث الأول بلفظ (نكب رسول الله) جـ6: 349. ويُلاحظ أنَّ الحديث الثاني، الذي صححه أبو نعيم، وانتقد ابن الأثير متنه، يُخالف صريح القرآن في أن مَنْ بالغار كانا اثنين فقط: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الذين كفَروا ثانيَ اثنين إذْ هُما في الغار﴾(التوبة: 40)، ومن المتواتر أن أبا بكر كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

([2]) المغازي للواقدي 2: 629، السيرة النبوية لابن هشام بتحقيق: د. طريفي جـ2: 73، أنساب الأشراف للبلاذري جـ1: 240، التبيين في أنساب القرشيين لابن قدامة 349، الاستيعاب لابن عبد البر مج4: ص1559، البداية والنهاية لابن كثير جـ3: 172، الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء جـ1: 436، عيون الأثر لابن سيد الناس جـ1: 229و230، سبل الهدى والرشاد جـ3: 317.

obeikandi.com

طالب، أمراء على سرية إلى مؤتة لمحاربة الروم، فقُتِلَ زيد، ثم قُتِلَ جعفر، ودعا الناس بعبد الله بن رواحة، ولَمَّا أصيبتْ إصبعُه ارتجز:

هَــلْ أنــتِ إلاَّ إصــبَعٌ دَمِيــتِ
وفــي ســبيلِ اللهِ مــا لَقِيــتِ
يــا نَفْــسُ إلاَّ تُقْتَلــي تَــمُوتي
هـذي حياض الْمَوتِ قدْ صَلِيتِ
ومــا تَمَنَّيْــتِ فقَــدْ أُعْطِيــتِ
إنْ تَفْعَلــي فِعْلَهُمــا هُــدِيتِ
وإن تــأخَّرْتِ فقَــدْ شَــقِيتِ[1]

وبهذا ترتفع شُبْهةُ نسبة هذين الشطرين لرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

أمَّا الرَّجَزُ الثاني، فمن المتواتر أن الرسول صلى الله عليه وسلم قاله في يوم حُنَيْن، ومن المتواتر– أيضًا– أن بعضَ أهلِ بيتِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم، ثَبَتُوا إلى جواره في يوم حُنَيْن، حين انكشف عنه الناس[2]، ومن هؤلاء الذين ثبتوا عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم الله وجهه. وهناك رواية تؤكِّد أن النبيَّ صلَّى الله عليه وسلم قال هذين المنهوكين بعد عليٍّ بن أبي طالب، بعد تغييرٍ طفيفٍ فيهما، فقد قال عليٌّ– رضي الله عنه وكرم الله وجهه– في حُنين:

هـــــذا النبـــــيُّ لا كَـــــذِبْ
هـــذا ابْـــنُ عَبْـــدِ الْمُطَّلِـــبْ[3]

فيرتفع عن النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم أنه أنشأ هذين المنهوكين ابتداءً، لكنه حوَّرَهما وعرَّف نفسه، قائلاً:

([1]) ديوان عبد الله بن رواحة، جمع وتحقيق: وليد قصاب ص 11. وانظر خبره في: الاكتفاء للكلاعي 2: 280، تاريخ الخميس جـ2: 71و72.

([2]) الذين ثبتوا إلى جوار الرسول صلى الله عليه وسلم تسعة، اثنان من المهاجرين، وسبعة من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، والعاشر استشهد، وهو أيمن بن عبيد، ذكرهم العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، كما هو مثبت في شعر العباس، في قسم الجمع.

([3]) إتحاف الورى بأخبار أم القرى للنجم عمر بن فهد جـ1: 533.

أنـــــا النبـــــيُّ لا كَـــــذِبْ
أنـــــا ابْـــــنُ عبـــــدِ الْمُطَّلِـــــبْ

وفي "النهاية" لابن الأثير (مادة: رجز)، ذكر المنهوكين على أنهما من إنشاء النبيِّ صلى الله عليه وسلم، بعد أن نقَلَ قول الحربي السابق ذكره([1]).

وفي "الوفا" لابن الجوزي، في باب "ذِكْر ما تمثَّل به من الشعر"، ذكر المنهوكين اللذين تمثَّلَ بهما النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم([2])، دون أن يذكر كيف نتصور تمثله بهما مع أنه من غير المعقول أن يدَّعي أحدٌ غيرُ النبي، أنه النبي الذي جاء من نسل عبد المطَّلب.

وقد وردتْ روايةُ هذيْن المنهوكين- أيضًا- عند البخاري، بالطريقة التي تُنبئ بأنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي أنشأهما ابتداءً، فقد أورد روايتين، الأولى فيها الشطران، والأخرى فيها الشطر الأول فقط([3]).

وأمَّا أن يحتمل البعضُ- مجرد احتمال- أن تكون نهاياتُ الأشطر مُعْرَبةً بالحركات وغيرَ مقيَّدة بالسكون، للخروج من المسألة، فهذا احتمالٌ غيرُ مقبول، لأنَّ الرواية مُقيَّدة. ومن الذين أوردوا هذا الاحتمال، الأزهري في كتابه "تهذيب اللغة"، حيث قال: "قال بعضُهم: إنما هو: لا كذِبَ، بفتح الباء في الوصل"([4]). وكذلك المظفَّر العَلَوي، في كتابه "نضرة الإغريض" فقد أورد مجرد احتمال من عنده، في قوله: "وقد يمكن أنه قد كان يقول:... أنا النبيُّ لا كذبًا، أنا ابنُ عبد المطلب، ويقول: هلْ أنتِ إلاَّ إصبعٌ دَمِيَتْ، وفي سبيلِ اللهِ ما لَقِيَت، أو ما يُقاربُ هذا"([5]).

وأمَّا أن يُخرِج بعضُ المؤلفين الرَّجَزَ من الشعر لوروده على لسان الرسول صلَّى الله عليه وسلَّم، فهذا لا يجوز لأحد العلماء أو الباحثين، مهما كان، لأنَّ العرب الذين كانوا

([1]) النهاية لابن الأثير ج2- ص199. وانظر قول الحربي ص72 من هذا البحث.

([2]) الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي ج2: 458.

([3]) صحيح البخاري- كتاب المغازي- باب قول الله تعالى: ﴿ويوم حُنين...﴾(سورة التوبة: الآيات 25- 27). والأحاديث بأرقام: 4315 و4316 و4317.

([4]) تهذيب اللغة للأزهري ج10: 611.

([5]) نَضْرة الإغريض في نُصْرة القريض للمظفر بن الفضل العلوي 380 و381.

obeikandi.com

مُعاصرين للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلم- بل كانوا يُشَكِّكون فيه- يعتبرون الرَّجَز ضَرْبًا من ضُروب الشعر. وليس خافيًا على الباحثين كلامُ الوليدِ بْنِ المغيرة([1]) لنفَرٍ من قريش، يصفُ فيه القرآنَ الكريم، حيث ورد في كلامه أن الرجز من الشعر: "قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عَرَفنا الشِّعْرَ كلَّهُ رَجَزَهُ وهَزَجَهُ وقَرِيضَهُ ومَقْبُوضَهُ ومَبْسُوطَهُ، فما هو بالشِّعْر"([2]). وسيأتي في ترجمة صفية بنت عبد المطلب، أنَّ أخا زوجها نوفل بن خويلد كان يلومُها على شِدَّتها في تربية أبنائها، فردَّتْ عليه بالرَّجَز- وهو القطعة الأولى من شعرها- فقال: يا بني هاشم، كُفُّوا عنَّا شاعرتكم هذه. كما أن أبا هريرة رضي الله عنه يعُدُّ الرجز نوعًا من الشعر، فقد رُوِيَ "أنَّ العَجَّاجَ أنشَدَ أبا هُرَيْرَة أُرجوزتَه التي يقول فيها: (ساقا بخنداة وكعبًا أدْرَمَا)، فقال أبو هريرة: كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعجِبُه نحو هذا الشِّعر"([3]).

فهل يجوز لمن أتى بعد ذلك أن ينفي عن الرَّجَز كونه ضربًا من ضروب الشعر أوْ بحرًا من بحوره([4])؟!

قال نشوان الحميري: "ومن الناس من لا يرَى الرجَزَ شعرًا، لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنا ابنُ عبد المطلب، أنا النبيُّ لا كذب، والله تعالى يقول: ﴿وما عَلَّمناهُ الشِّعْرَ وما يَنْبَغِي لَه﴾..."([5]). وقد رَدَّ على ذلك ابنُ رشيق، فقال: "وقد رأى قومٌ أنَّ مشطور الرجز ليس بِشِعْر لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (هل أنتِ إلاَّ

([1]) هو والد خالد بن الوليد، وهو أحد قضاة العرب، كان يجلس بذي المجاز، فيحكم بين العرب أيام عكاظ، وأسند إليه عبد المطلب في مرض موته ولاية مكة. وانظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج18: 290.

([2]) السيرة النبوية لابن هشام (ط. طه عبد الرؤوف) ج1: 198.

([3]) الرجز بين قديم وحديث، د. يوسف نوفل (مقال بمجلة مجمع اللغة العربية) ج38- ص145. والحديث برواياته في: جمع الجوامع للسيوطي ج22- ص744- 746، وأشار فيه إلى النقل عن: مسند أبي يعلى، وتاريخ دمشق لابن عساكر، والكامل لابن عدي، ومسند عبد الرزاق.

([4]) يرى د. محمد مصطفى هدارة، أنه "من قبيل الإسراف على النفس وعلى البحث العلمي في نفي الشعر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، أنَّ قومًا رأوا أن مشطور الرجز ليس بشعر لأن الرسول قال بيتًا في وزنه"، وانظر كتابه: الشعر العربي في القرن الأول ص88. لكن الذي لا يليق أن نظن أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قاله بمعنى أنه أنشأه ابتداءً.

([5]) الحور العين لنشوان، ص86.

إصبعٌ...)...، وليس هذا دليلاً، وإنما الدليلُ في قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم، عَدَمُ القصد والنيَّة"[1].

وروى الأزهريُّ رأْيَ الخليل واضع علم العروض، فقال: "وزعم الخليل أنَّ الرَّجَزَ ليس بشعر، وإنما هو أنصافُ أبيات وأثلاث". وقد بنى الخليلُ رأيه على أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ورد على لسانه قوله:

أنــــا النبــــيُّ لا كـــذِبْ

أنـــا ابـــنُ عبـــد الْمُطَّلـــبْ

قال الخليل: فلو كان شعرًا لم يَجْرِ على لسان النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. قال الله تعالى: ﴿وما عَلَّمناهُ الشِّعْرَ وما ينبغي له﴾ أي: وما يتسهَّل له. وقال أبو إسحاق: قال الأخفش: قول الخليل إنَّ هذه الأشياء شعر، وأنا أقول إنها ليست شعرًا، وذَكَرَ أنه هو أَلْزَمَ الخليل ما ذكرنا، وأنَّ الخليل اعتقده"[2]. مع أننا لا نجد لذلك ذكرًا في كتاب العَروض للأخفش، بل ذَكَرَ الرجزَ ضمن بحور الشعر العربي، وذكر رأي الخليل في خُروجِ الرَّجَز من الهزَج. بل إنَّ الأخفش افتتح حديثه عن بحر الرجز، قائلاً: "وأمَّا الرجز، ففَعَلَتُنْ أحسن منه في البسيط والسريع، لأن الرجز يستعملونه كثيرًا، وإنما وضعوه للحداء، والحداء غناء، وهُمْ وكلامُهم إذا كانوا في عمل أو سَوْق إبلٍ، فالحذف مما يكثر في كلامِهِم، أخَفُّ عليهم"[3]. كما لم يذكر الأخفشُ شيئًا من ذلك في كتابه "معاني القرآن"، فقد فسَّر مواضع قليلة من سورة يس، دون أن يتعرَّض لقوله تعالى ﴿وما علمناهُ الشِّعر... ﴾[4].

لكننا عثرنا على رأي الخليل في كتاب "العين"، حيث قال: "المشطور والمنهوك ليسا من الشعر، وقيل له: ما هُما؟ قال: أنصافٌ مُسجعة، فلمَّا رُدَّ عليه، قال: لأحتجنَّ عليهم بحجة فإن لم يُقِرُّوا بها عسفوا، فاحتجَّ عليهم بأن رسول الله صلى الله عليه

---

(1) العمدة لابن رشيق، ص296.

(2) تهذيب اللغة للأزهري ج10: 610 و611.

(3) كتاب العروض للأخفش، ص149 و150.

(4) معاني القرآن للأخفش ج2- ص488 و489.

وسلم كان لا يجري على لسانه الشعر. وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (ستُبدِي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود) فكان يقول عليه السلام: (ستُبدِي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيك من لم تزود بالأخبار) فقد علمنا أن النصف الذي جَرَى على لسانه لا يكون شعرًا إلا بتمام النصف الثاني على لفظه وعَرُوضه، فالرجزُ المشطورُ مثلُ ذلك النِّصف. وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق: (هَلْ أنتِ إلا إصبعٌ دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ) فهذا على المشطور. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب) فهذا من المنهوك، ولو كان شعرًا ما جرى على لسانه، فإن الله عز وجل يقول: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾(1)".

ليس معنى كلامِ الخليلِ بْنِ أحمد أنه يرَى نسبة هذه الأبيات للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، فكل مُشتغِلٍ بالعربية يعلم بأن البيت (ستُبدي لك الأيام...) لطرفة بن العبد، وأن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يتمثل به، فصاباهُ، أي غَيَّرَه، أو لم يستطع أن يُجريه صحيحًا على لسانه صلى الله عليه وسلم. وحين ندقق في نصِّ الخليل نجد أنه لا يقصد نسبة الباقي للنبي صلى الله عليه وسلم: المشطورين: (هل أنتِ إلا...) والمنهوكين: (أنا النبي...)، لكنه ينفي عنهما كونهما شعرًا لمجرد جريانهما على لسان النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا التزيُّد منه يُسْهِمُ في تعقيد الأمر، فقد أخذ البعضُ برأي الخليل أن البيت والبيتين من المنهوك أو المشطور لا يُسَمَّيان شعرًا، لأنهما جَرَيَا على لسان الرسول، فالعرب لا يُسمُّون راوي الأشعار شاعرًا لكونه يستطيع النطق بالأشعار، إلاَّ إذا كان يُنشئ الشعر. كما أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم، الذي هو أفصحُ خَلْقِ الله، والذي لم يُعَلِّمه الله الشعر، قد يستطيعُ النطق بما سَمِعَه من شعر، وقد لا يستطيع، أما استحالةُ نطقه بالأشعار تمامًا فهذا لم تنطِق به الآية القرآنية.

كما أن هذه القطع الصغيرة تُسمَّى عند الرواة بالْمُقَطَّعات، وتُسمَّى الواحدة منها مُقَطَّعة، وصاحبُها لا تنتفي عنه الشاعرية، وإنما يُقال عنه: شاعرٌ مُقِلّ. بل كان ذلك حال الشعر قبل أن يُهَلهَل، وقبل أن تُطَوَّل القصائد. والشاعريةُ صفةٌ نفاها القرآنُ تمامًا

---

(1) العين للخليل ج6- ص64- 66.

عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم. ولذلك لا يصحُّ اجتهادُ الخطَّابي حين يقول: "وقال بعضُهم: معنى قول الله تعالى: ﴿وما عَلَّمناهُ الشِّعرَ وما ينبغي له﴾ الرَّد على المشركين في قولهم: ﴿بل افتراهُ بل هو شاعر﴾، والبيت الواحد من الشعر لا يلزمه هذا الاسم، ولا يُوجب أن يكون به شاعرًا. فيُخالف معنى هذه الآية، مع قوله (إنَّ من الشعر لحكمة)، وإنما الشاعرُ هو الذي يُقصِّد الشعر، ويُشَبِّب، ويصف، ويمدح، ويتصرَّف تصرُّف الشعراء في هذه الأفانين. وقد برَّأ الله رسوله من ذلك، وصان قدْره عنه، وأخبره أنَّ الشعر لا ينبغي له. وإذا كان مراد الآية هذا لم يدفَعْ أنْ يجري على لسانه الشيءُ اليسير منه، فلا يلزمه الاسم المنفيُّ عنه"([1]).

وأمَّا نفْيُ الشاعرية عن تلك الأشطُر، لانتفاء القصد، فليس مما يصح ترديدُه أيضًا، فإنَّ انتفاء قصد الشعر من الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور البديهية، لأنَّ انتفاء القصد عند النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم، يعني أنه يتكلَّم وَحْيًا صرفًا لا دَخْل له فيه، لا رَجَزًا من ضروب الفن البشري. فلا يصحُّ ترديدُ ذلك، لأنه يعني أنه مُنشئ النص ولكن دون قصد. لكنَّ الصواب أنَّ هذه الأراجيز ليست من إنشائه أصلاً. وإذا كان بعض المؤلفين يرَوْن أنَّ بعضَ الآيات موزون، دون أن يُسَمَّى ذلك شعرًا لعدم القصد والنيَّة، فإنَّ كلامهم مردودٌ بأنهم اجتزءوا آياتٍ أو بعضَ آياتٍ فوجدوها على تفعيلات بعض الأبحر، لكنهم لن يجدوا سورة موزونة، كما أن هذا الاجتزاء هو الذي جعلها موزونة، وهذا يُمكن تكراره مع غير القرآن الكريم، من كلام العرب.

ذكر ابن قتيبة الرجزين اللذين ندرسهما (هل أنتِ إلاَّ إصبعٌ دميت- أنا النبي لا كذب)، وعلَّق عليهما قائلاً: "فليس هذا شعرًا، وإن وافق في الوزن الشِّعر، لأنه لَم يَنْوِهِ ولا قارَنَهُ بأمثاله، وإنما هو وفاقٌ وقعَ بينه وبين الشعر"، وذكر ابن قتيبة "أنَّ رجلاً سأل أبا عبيدة عن هذا من قول النبيِّ عليه الصلاة والسلام، فقال: (ما لَمْ يُعْنَ بالشعر فليس بشعر)، والقليل من الكلام يتغيَّر عن حاله بالقصد والنيَّة"([2]).

([1]) أعلام الحديث للخطابي 1360 و1361.

([2]) غريب الحديث لابن قتيبة ج1: 452.

وهذا ما ذكره الخطَّابي– أيضًا– فقال: "ذهب بعضُهم إلى أنَّ هذا الكلام وما أشبهه من سائر القول– وإن استوى على وزن الشعر– فإنه لم يُقصَدْ به الشعر إذا لم يكن مصدرُه عن نيَّةٍ له، ورَويَّةٍ فيه، وإنما هو اتفاقُ كلامٍ يقع أحيانًا، فيخرج الشيءُ منه بعد الشيء على بعضِ أعاريض الشعر، وقد وُجِدَ في كتاب الله عزَّ وجَلَّ الذي ﴿لا يأتيه الباطلُ من بينِ يديه ولا مِنْ خَلْفِه، تَنْزيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيد﴾، كقوله: ﴿وَجِفَانٍ كالْجوابِ وقُدُورٍ رَاسيات﴾، وهو ما لا يُشَكُّ فيه أنه ليس بشِعْر، وإن اتَّزَنَ الكلامُ فيه بزنة الشعر"([1]). وهو ما ذكره الصالحي، حيث قال: "وهذا– وإنْ وقع موزونًا– لا يُسَمَّى شعرًا، لأنه غير مقصود"([2]).

لكنَّني أرَى أننا كُنَّا في غنًى عن هذه التخريجات الواهية، التي تجعل التناقض قائمًا، وتفتح أبوابًا من الجدل حول هذه القضية، لو أنَّ رواياتِ الأحاديثِ كانتْ مُكتمِلةً وفي سياقِها من الأحداث والغزوات، لنحكُم بأنَّ الأراجيز التي وردت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يُنشِئْها أصلاً، ولكنه تَمَثَّل بها، وتحوَّرَت على لسانه الشريف حين نطق بها. بدلاً من أن يظَلَّ الباحثون يُرَدِّدون الكلام القديم ويُوقعوننا في التناقض، كما قال أحدهم: "ولم يَجْرِ على لسان رسول الله مما صَحَّ وزنه إلاَّ البيتُ من الرجَز المنهوك والمشطور، فقد قال: (أنا النبيُّ...)، وأرجازٌ أخرى في بناء مسجد المدينة، وفي حَفْر الخندق، ومعروفٌ أنَّ الرَّجَز ليس شِعْرًا، بل هو وزن كأوزان السَّجْع، ومنزلته ما بين الشعر والنثر، وإنَّ الشطرين منه كالشطر من الشعر، حتى إنَّ الخليل لم يعُدّ المشطور منه شعرًا"([3]).

ألم أقُلْ إنَّ المسألة كانت تبدو وكأنَّ الباحثين قتلوها بحثًا بالرغم من أنَّ التناقُضَ ظلَّ قائمًا؟!

([1]) أعلام الحديث للخطابي 1359 و1360.

([2]) سبل الهدى والرشاد للصالحي ج5: 485.

([3]) الإسلام والشعر، د. سامي مكي العاني ص59 و60.

obeikandi.com